

الانسان .. أجنبي ..

ان الانسان أجنبي، حسب ما نعرفه من التورات والانجيل، اذ أن الله طرد آدم من الجنة، بعد أن أكل من ثمرة معرفة الخير والشر، وحكم عليه بالتيه من مكان الى آخر، بحثا عن ملجأ، وطلبا للعمل والقوت.

وهكذا، فان آدم، الرجل الاول، هو أيضا أول أجنبي فوق الارض. ومنذ ذلك الحين، والتاريخ يعيد نفسه، معك أنت ومعي، مع كل فلاح وعامل ومثقف، مرغم على مغادرة عائلته وبلده وأصحابه من أجل ايجاد مسكن وشغل وشيء من الحرية في مكان آخر.

وهذه القصة عشتها أنا أيضا، عندما تخطيت جبال ايطاليا، بدون أوراق وبدون معرفة شيء ولا أحد، متجها نحو فرنسا التي كانت هدف سفري الطويل. وكنت أنظر من أعلى هذه الجبال الى رجال الدرك "الكرابينيري"، الموجودين أسفلها. وكنت أقسم الطريق مع عدد من الناس لا أعرفهم، بعضهم يحمل حقيبة، والبعض الآخر كيسا، وكان قلبي مقبوضا، ليس من جراء الخوف، بل من تأثير التفكير في أنني بعد ساعة أو ساعتين، ستطأ أقدامي تراب بلد الثورة، أرض حقوق الانسان، ووطن "المارسايز"، وأنني سألتقي أخيرا، مع رجال يتكلمون تلك اللغة الفاتنة، شعارهم: الحرية والمساواة والاخوة.

ولم يكن هذا مجرد حلم... الا أن الاتصالات الاولى في القطار الذي كان يحملنا الى باريس، ولدى الشرطة، وأخيرا في الفندق، كانت كافية لتجعلني أكتشف حقيقتي الجديدة: لقد أصبحت عبارة عن رخصة اقامة، وبالتالي، أجنبيا.

وكل هذا يمكنه أن يبدو أمرا عاديا، لكن عددا من الناس ذوي النيات الحسنة، لا يدركون هذه الحقيقة البسيطة: ان المرء لا يكون أجنبيا تلقائيا، لكنه يمكن أن يصبح كذلك.

ان المسافرين في القطار، ورجال الشرطة، وصاحب الفندق، هم الذين جعلوا مني رجلا أجنبيا. وعندما يتم الحديث عن استقبال الاجانب، فهناك لبس في التعبير، لان الرجل الذي يدخل أماكن هذا الاستقبال ليس بأجنبي، على عكس الذي يخرج منها...

نعم، ان الطريقة التي ينظر بها الفرنسيون، أو يخاطبون بها المغربي أو



الايطالي أو البرتغالي، تساهم بالقسط الوافر في تحديد الوضعية التي سيكون عليها هو؟ فيما بعد، وانني أريد أن أقول هنا: إن المرء لا ينال سوى الايجاب الذين يستحقهم.

وأعترف أن التفاهم مع الاجانب أمر صعب. لكن يجب أن تعترفوا معي أنه عندما يعتبر المرء أجنبيا فقط، في الشارع وفي الشغل وفي العمارة، فإن ذلك أمر أكثر صعوبة.

فبمجرد أن تفتح فاك، يسمع أولا نطقك الغريب. وعندما تقدم نفسك، يتم النطق باسمك الغريب بشكل مشوه، وإذا ما طلبت منك بطاقات تعريفك، فإن الشرطي سيحتفظ بها ما يكفي من الوقت لاقلاقك.

لقد تساءلت كثيرا عن أسباب هذه الصعوبة التي تعترض حياتنا اليومية، فلماذا هذا التمييز في التصرف، سواء تعلق الامر بالعلاقة مع الجار أو مع رفيق في الشغل أو مع مار في الشارع، الخ...؟

لا أعرف الجواب الصحيح. لكنني أتصور أن مصدر هذه الصعوبة يرجع الى شيئين بسيطين وجد شائعين: سوء التفاهم والعداوة. وسأشرح هذا التصور بأكثر ما يمكن من التبسيط.

إن أي شعب، وكذا أي انسان، يملك فكرة أو معتقدا يوجه طريقة تصرفه وحكمه على الاشياء، يتصورها متفوقة على غيرها من الافكار والمعتقدات، وهي التي تجعل منه انسانا خاصا ومختلفا عن غيره.

ومن جهة ثانية، فاننا تعودنا على تناول المجهول أو الاجنبي، قياسا بما هو معروف ومعتاد. هكذا، فإن فهم شيء أو شخص ما يفترض أولا ملاحظته، ثم مقارنته بالمعتقد أو الفكرة التي نملكها. وهذا يعني ادخال الجديد في القديم، والاجنبي فيما هو معروف ومعتاد.

وبما أن الناس الذين ينتمون الى شعوب مختلفة، وإلى مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية، لا يقيسون أحكامهم بنفس الافكار والمعتقدات، فإن هذه الاحكام لا بد وأن تكون مختلفة كذلك. فنحن لا ننظر للاشياء والاشخاص الا من خلال صور مشوهة، أي أننا نشوهم وفقا لمعتقداتنا وأفكارنا. هكذا، فإن نفس الكلمات تحدث صورا وأفكارا مختلفة داخل العقول المختلفة.

الا أننا لا نعي بهذا التشويه، ولا نفكر حتى في وجوده. ولهذا السبب، لا نفهم كيف يمكن للآخرين أن يتصرفوا أو يتكلموا أو يفكروا بطريقة لا تشبه تماما طريقتنا.

وسوء الفهم هذا، يخلق عقلية عدم التسامح، ويؤدي حتى الى رفض الآخر رفضا مطلقا.

وفي نظرنا، فإن كل الذين يعبرون عن آراء أو أحكام مختلفة عن آرائنا

وأحكامنا، فانما لهم ذكاء محدود، وتحركهم سوء النية، وأفسدتهم الاحكام المسبقة. وإذا كنا نمتلك سلطة ما، اعتبرنا من واجبا اضهاد هذا الجن الخطير. وبهذه الطريقة نعرفهم على الثمن الذي يجب أدائه مقابل الرغبة في الحياة والتفكير بطريقة تخالف طريقة الشعب المتفوق الذي يستقبلهم...

ولقد تعودنا على تصنيف الناس الى طيبين أو شريرين، جميلين أو قبيحين، ودودين أو كريهين، الخ... وبالنسبة للجماعات أو العائلات أو الاحزاب أو الدول، فإن التصنيف الجارى به العمل، يكون بين الصديق أو العدو، بشكل يرسم حول الناس حدودا خفية أو واضحة للعيان.

فالعدو يعتبر سيئا على المستوى الاخلاقي، ويشكل منافسا في الشغل، ويمكن أن نمارس عليه ما لا يمكن أن نمارسه في حق أقربائنا، بالشكل الذي يجعلنا مستعدين للاحاق الاهانة به، واضهاده وخرق حريته. وهي كلها أشياء نتفق على الصراع من أجلها ونقبل بالموت على أن تلحق بنا.

فأنت اذن، عدو لنا فقط لانك انسان مغاير لنا، ولأنك أجنبي على وجه التحديد، وهذا شيء كاف.

إنه شيء كاف لاذكاء العداوة. انك تتكلم لغة أخرى، ولك تقاليد مختلفة، فهذا شيء كاف...

اذن، فبمجرد ما نمح رخصة الاقامة، أنا وأنت، يتم تحويلنا الى أجنب، وفي نفس اللحظة، يتم تحويلنا الى أعداء محتملين، فنثير بذلك الخوف والشعور بضرورة الدفاع عن النفس ضدنا. وهذا الشعور بالعداوة، ينشأ دون أن ينتبه اليه أحد، ويفسر الطريقة التي نعامل بها، ونحاكم ونعبد.

ولقد قام الفيلسوف بيرفوسون بتلخيص كل هذا في جملتين واضحتين جدا، عندما قال: "إن المقولتين المتناقضتين: الانسان الاله بالنسبة للانسان الآخر، والانسان ذئب بالنسبة للانسان الآخر، يمكنهما أن تنسجما بكل سهولة. فعندما نقول بالاولى، فاننا نتحدث عن مواطن ما، أما الثانية فتخص الاجانب".

هذه حسب ما أعتقد، الاشياء البديهية التي تهيم على الحياة اليومية لكل مهاجر: سوء الفهم والعداوة.

ولسوء الحظ، فإن مقاومتها تحتاج الى الكثير من الطاقات. أما الخطابات الطويلة، والنيات الحسنة، فانها غير كافية لمحاربتها. فالعمل المتواضع والصبور هو وحده القادر على جعل كل فرنسي يحس بهذه الحقائق البسيطة، أي العمل القادر على التأثير في عمق العقلية.

يجب أولا، جعل كل واحد يفهم أن "المرء لا ينال سوى الاجانب الذين يستحقهم"، أي أنه مسؤول عن هذا الواقع. ثانيا، وعلى افتراض أن الانسان يملك أفكارا سياسية أو دينية أو فلسفية صحيحة، فإن هذا لا يترتب عنه بالضرورة، فهم

صحيح للانسان الاخر. فهذه الافكار لا تجعل منه بالضرورة، أختا للانسان الايطالي أو الجزائري أو الروماني أو البرتغالي. فهناك دائما تشويهات تنصب المنادف وتسمم العقول. وأخيرا، فان الاجنبي الذي يعامل اليوم كعدو، هو صديق الغد. انظروا جيدا، وجهها لوجه، الى هؤلاء المهاجرين. الى "رخص الإقامة" هؤلاء، وأبنائهم وعائلاتهم. فاذا ما استثنينا امكانية طردهم بشكل جماعي، فان أغليبتهم ستبقى هنا، والا، فالى أين تريدونهم أن يعودوا؟ انهم فقدوا كل شيء في الاماكن الاخرى.

هل تدركون عواقب هذا الواقع؟ انهم، مثلهم مثل ملايين الاسبان والمغاربة والبولونيين، سيذوبون في جسم المجتمع. لا شك أن الفوارق والتشخيصات ستظل موجودة، وأن آثار المعاناة والتمييزات لن تنمحى بسرعة، الا أن أحدا لم يقل بأن بلدا أو شعبا ما — والفرنسيون ليسوا استثناءا — يجب أن يكون من شكل واحد، ومن أشخاص مماثلين. أصل اذن، الى طرح السؤال الذي كنت أرغب في طرحه منذ مدة طويلة. هل من الضروري أن يتم هذا التطور في وضعية الاجانب رغما عنكم، عوض أن يتم بمساهمتكم؟...

سيرج موسكوفيتشي

